الصوت الآخر

مسرحية بقلم الدكتور عمر النص

مكتب القاضي في منزل انيق . الغرفة مفروشة بأثاث فاخر يتسم بذوق تقليدي وقد وضعت في صدر الغرفة طاولة رصت عليها رزم من الاضابير والكتب . بينما تتوسط الغرفة اريكة ومقعدان بينهما منضدة واطئة . للغرفة باب يؤدي الى بقية المنزل ونافذة عريضة تطل على الشارع . الوقت ليل .

القاضي : قلت لكما : لا ! لا استطيع أن اصنع شيئا من اجلها . لقد خرج الامر من يدي . لقد خرج الامر من يدي .

الدكتور : لا شك في أن هنالك نصوصا قانونية تستطيع بواسطتها أن تنقذهـا .

القاضي : ألم اقل لك ان المحكمة قد اصدرت حكمها ، فماذا تريدني ان افعل ؟

الدكتور : أريد منك ان تعيد نظرك في قضيتها كلها ، فلا ريب في انك واجد فيها أشياء اخرى غير الجريمة التي اتهمت بها.

القاضي : ولكني لست الا قاضيا ايها الصديق ، فانا لا اصنع القوانين بل أطبقهـا .

الدكتور : وانا لا اسألك أن تضع قانونا جديدا ، بل أسألك ان تكون اكثر رأفة عندما تطبقه .

القاضي : ولكنها امرأة مذنبة . لقد اعترفت هي نفسها بجرمها .

الدكتور : وأنا لا انكر انها قد اذنبت ، ولكني احاول ان افهم السر الذي يكمن وراء ذنبها .

القاضي : انت طبيبها ، عشت مرضها ، ومررت بيدك على نبضها ، على قلبها ، على اعصابها ، ولعلك قد أجلت بصرك في اعماقها ،في تلك الغياهب التي تحملها في صدرها ، فماذا وجدت فيها ؟

الدكتور : وجدت امرأة شابة تعاني ازمة قاسية تأكل اعصابها اكلا ..

القاضي : ولكن القوانين لا تعترف بهذه الازمات ، لا تقبلها سببـا للقتـل ..

الدكتور : أأنت على يقين بأنها قتلت ؟

القاضي : هذا ما وصل اليه تحقيقنا .

الدكتور : أما الحقيقة ؟

القاضي : اما الحقيقة فلا أحد يعرفها ..

الدكتور : اذن هل تعدني باعادة النظر في قضيتها ؟

القاضي : كلا . لقد قلت لك ان الامر قد خرج من يدي .

الدكتور : ولكن كيف تسمح ليدك أن تقضي على حياة انسان ؟ ان تمحو اسم انسان ، ان تئد انفاس انسان ؟

القاضي : ولكن ماذا تريدني ان افعل ؟ امرأة تفتن بطفلة لجارة لهـا فتختطفها . ثم تحاول ابعادها عن ابيها . وعندما تخفق في ذلك تدفع تلك الطفلة الى بركة ماء حتى تجد فيها حتفها.

أتريد مني ان اطلق سراحها ؟ ان اتركها تصطاد بعينيهـا الجائعتين كل طفلة تمر بقربها ؟ ان ادعها تروع كل ام في المدينة يتفق ان يكون لها طفلة جميلة ذات ضفيرتيـن شقراويـن ؟

الزوجة : لا يا عزيزي . انت تعلم ان صديقنا الدكتور لم يقصد الى هـذا ؟

القاضي : ولكنه يريد مني ان اضع الرأفـة فوق العدالة . وهذا امر لا يستطيعه قاض .

الدكتور : بل أريد منك أن تضع الانسان فوق النصوص . ترى هل استطعت ان تفهم تلك المرأة ؟ ان تدخل الى اعماقها ؟ أن تبصر أحشاءها تتمزق لانها لم تستطع أن تحتفظ بتلك الطفلة التي أحبتها ؟

القاضي : هذا شأنها وحدها ! اما نحن فليس علينا الا نحمي الناس من أذى الناس أنا يا صديقي لا أؤمن بان الجريمة يمكن ان تشفع لجريمة اخرى . لا استطيع ان اغمض عيني عندما ارى الناس يرتكبونها دون خوف من القانون او رحمـة بغيرهم من الناس .

الزوجة : ولكن تلك المرأة .. لا شك في ان وراء جريمتها سببا لـم يستطع احد الوصول اليه .

القاضي : لماذا تقولين هذا ؟ هل تعلمين عن هذا السبب شيئا ؟

الزوجة : كلا يا عزيزي . ولكنني لا استطيع أن اقبل جريمتها . لا استطيع كامرأة ان افهم كيف يمكن لها ان تقتل تلك الطفلة التي أحبتها .

القاضي : ولكنها قتلتها . هذا امر ليس في وسع احد انكـاره بعـد اليـوم .

الدكتور : ترى هل قتلتها حقا ؟ ام انها تزعم ذلك لانها تريد ان تصل الى موتها عن هذا الطريق المؤلم الموجع ؟

القاضي : لا ادري ... لا ادري .

الزوجة : انا لم أرها الا مرة واحدة في قاعة المحكمة .. ولكن يخيل اليّ انها لم تكن امرأة شريرة .

الدكتور : كلا يا سيدتي . بل لعلني استطيع ان ازعم انها امرأة طيبة القلب الى درجة لا تكاد تصدق .

القاضي : لعلها أن تكون مريضة اذن ؟

الدكتور : لقد فحصتها عندما طلبت المحكمة ذلك مني . ثم اعـدت

فحصها مرات كثيرات . ولا شك عندي في أن مرضها الذي تشكو منه ليس مرضا عاديا ، ليس صداعا يمكن الخلاص منه بعد دقائق معدودات ، ليس التهابا رئويا ، ليس اضطرابا يعاني منه ذهنها .. ولكنه أعمق من هذا كله ، آلم من هذا كله !

القاضي : ماذا نفعل بها اذن ؟

الدكتور : لا ادري . لقد جئت لاحدثك بأمرها .

القاضي : ولكن الحكم بموتها قد صدر .

الدكتور : تستطيع أن تنقضه اذا شئت .

القاضي : كلا . هذا ليس في مستطاعي .

الدكتور : أهذه كلمتك الاخيرة ؟

القاضي : ليست هذه كلمتي بل كلمة القانون .

الدكتور : لا ادري يا صديقي لم أحس احساسا قويا بانني ارثي لك .

القاضي : ترثي لي ؟

الدكتور : أجل . أيدهشك هذا ؟

القاضي : بل يؤلمني .

الدكتور : أما زلت تجد في هذه الحياة اشياء تؤلمك ؟ لقد ظننت ان عملك قد جعل منك صخرة لا تأبه بأمثالنا من المساكين الذين ينسحقون تحتها .

القاضي : لشد ما تظلمني !

الدكتور : بل لشد ما تظلم نفسك عندما تلزمها بقوانينك تلك ، فلا تكاد تترك لها صلة بهذه الالام الكثيرة التي يعاني منها الناس ثم لا يجدون منها فكاكا .

الزوجة : لقد أسرفت على زوجي ، ان في قلبه كنزا لا يستطيع احد ان يشهد بغناه مثلي .

الدكتور : معذرة يا صديقي .. معذرة فأنا لم أقصد الى الاساءة اليك .

القاضي : لقد قلتها . فماذا ينفعني الان أن تحاول ازاحة التهمة عني؟

الزوجة : ولكنك لن تترك تلك التهمة تعذبك كأنها صوت من عالم آخر .

القاضي : كلا يا عزيزتي بل سأحاول ان أنساها .

الزوجة : اجل لنحاول ان ننساها ..

الدكتور : (وهو ينهض عن مقعده) : اعتقد انني سانصرف الان . سأحاول ان آمر على تلك المريضة وانا في طريقي الى منزلي.

القاضي : أجل . ينبغي عليك أن تمر عليها .

الدكتور : مساء الخير اذن . مساء الخير يا سيدتي .

(يخرج الدكتور)

الزوجة : لا ادري ! هل ألومه على ما قال او ألومك انت على ما قلت .

القاضي : لا تلومي احدا يا عزيزتي . لا تلومي احدا . لقد قال ما يعتقده صوابا وقلت انا ما أعتقده صوابا .. أما الحقيقة فلا يستطيع اي منا ان يدعيها .

الزوجة : الحقيقة ؟ كأني بك ترتاب في صواب الحكم الذي أصدرته على تلك المرأة ؟

القاضي : أنا ؟ كلا يا عزيزتي . انا لا أرتاب في صواب ذلك الحكم . ولكنني ارتاب في نفسي . ارتاب في قدرتي على التحديق الى نفوس الناس بعينين مخلصتين بريئتين ...

الزوجة : ولكنك على يقين بأن المرأة قد قتلت تلك الطفلة ؟ أليس كذلك ؟.

القاضي : لا ادري . لا ادري . لعلها قتلتها . ولعلها لم تقتلها . لقد لقد اضطربت احداث القضية كلها في رأسي . (يجلس على أحد المقاعد متهالكا) .

الزوجة : انت متعب يا صديقي ، فما رأيك ان تأوي الى الفراش دون ان تنصرف الى هذه الاضابير التي جئت بها ؟

القاضي : كلا يا عزيزتي . لا بد من قراءتها . تستطيعين ان تذهبي الى الفراش . فانا باق لمراجعتها ..

الزوجة : هل تريدني أن أبقى معك ؟

القاضي : كلا . لا اريد شيئا . تستطيعين ان تذهبي الى الفراش .

الزوجة : (مترددة) : تصبح على خير .

القاضي : تصبحين على خير ..

(تخرج الزوجة وهي تنظر الى زوجها بقلق)

القاضي : أوف . يا لها من ليلة تنذر باعصار غادر !

(يقوم الى مذياع موضوع على مقربة من الطاولة فيدير قرصه فتنطلق منه أنغام بيانو منفرد)

القاضي : (وهو يعود الى مقعده) : أصحيح انني اصبحت صخرة لا تابه بالمساكين الذين ينسحقون تحتها ؟ ولكنني لم ازل انسانا . لم تزل لي عينان تستطيعان ان تريا ما في هذا الكون من جمال . لم تزل لي أذنان تنصتان الى هذه الموسيقا الهادرة فأغرق في أمواجها مغتبطا مأسورا . أما ما يقال عن قسوتي ، عن التزامي بقوانيني لا أحيد عنها ، عن اهمالي لما وراء الجسد من أرواح تتعذب ، فهذا ادعاء باطل لا أساس له . ولكنني لا أستطيع أن اقنع الاخرين بصواب رأيي ، برقة احساسي ، بألمي عندما أنظر الى عيني احد المحكومين امامي فأجدهما قد غابتا وراء سحابة صفيقة من الخوف . أكره ان انطق بالكلمة التي تقضي على حياة انسان . التي تمحو اسم انسان . التي تئد أنفاس انسان . ولكن ما العمل ؟ لا بد في هذه الحياة من قاض ينطق بتلك الكلمة ، لا بد من قاض يزرع تلك السحابة الصفيقة من الخوف في أعين ضلت سبيلها فلم تجد غير أرواح الاخرين غديرا تغمس فيه خناجرها الظامئة الى الدم ...

(يفتح باب الغرفة ويدخل منه رجل في الاربعين مربوع القامة متزن الخطى ، ضائع النظرات ، يجيل عينيه في الغرفة ثم يقترب من القاضي الذي لا يراه)

القاضي : اما تلك المرأة فلم أنطق أنا بالكلمة التي سوف تقتلها . لم أزرع في عينيها سحابة خوف . بل أعلني حاولت أن أنقذها. أن أدفعها الى الدفاع عن نفسها . أن أحملها على طلب تبرئتها . ولكنها ظلت عنيدة الى آخر لحظة . أبية الى آخر لحظة . حزينة الى آخر لحظة .

الزائر : لعلها كانت تعلم في أعماقها أنك لن تفهمها .

(ينتفض القاضي وينظر الى الزائر بحذر وفضول معا)

القاضي : ولكن من أنت ؟ كيف دخلت الى بيتي ؟!

الزائر : دخلت اليه كما يدخل اي انسان .

القاضي : ولكن من أنت ؟ وما شأنك بي ؟

الزائر : أظلت لي : من أنا ؟ سوف تعلم هذا بعد قليل .

القاضي : ولكن ! ما الذي حملك على القدوم اليّ ؟ ما الذي قادك الى بيتي ؟

الزائر : لا أدري . لعلها نزوة هوى .

القاضي : بل لا بد لقدومك من سبب . هل تعرف من أكون ؟

الزائر : هل أعرف من تكون ؟ أجل : أيها القاضي المحترم .

القاضي : اذن فانت تعترف بأن وراء قدومك سببا ..

الزائر : وأنت ؟ ألا تعرف بأن وراء قدومي سببا ؟

القاضي : يخيل اليّ أنني قد لقيتك في مكان ما ...

الزائر : ربما كان هذا في الطريق .

القاضي : بل في مكان مزدحم بالناس . ان ذاكرتي لا يمكن أن تخونني

الزائر : عجبا . كنت أظن ان عينيك المتعاليتين لا يمكن ان تهبطا الى

الارض لتريا أمثالي من المتنافهين المنسيين .

القاضي : ولكن قل لي : من أنت ؟

الزائـر : ألم تقل ان ذاكرتك لا يمكن أن تخونك ؟ فابحث فيها لعلك تجد اسما لهذا الوجه التافه الذي يقف أمامك .

القاضي : لقد دخلت بيتي بدون استئذان ، واقتحمت عليّ عزلتي فهل تجدني أسرف في سؤالي ان أنا سألتك من تكون ؟

الزائـر : كلا يا سيدي . أنـا لا آخذ عليك سؤالك اياي من اكـون . ولكنني كنت أنتظر منك أن تجد لي اسما في أعماق تلـك الذاكرة القوية التي لا يمكن أن تخون .

القاضي : أنا لا أسمح لك بالنيل مني . أنت في بيتي .

الزائـر : أجل أنا في بيتك . ولو استطعت أن أجدك في المحكمة لما أتيت الى البيت .

القاضي : اذن انك كنت تراني في المحكمة .

الزائـر : أجل . هذا صحيح .

القاضي : وأن قضية ما من القضايا التي كنت أنظر فيها كانت تهمك ؟ أليس كذلك ؟

الزائـر : هذا صحيح ايضا .

القاضي : ولنقل انك كنت تحاول الالتقاء بي لتحدثني . لتشرح لـي أمرا . لتكشف لي سرا .

الزائـر : كلا . فانا لم آت لاكشف لك أي سر . بل لاعرف منك سرا.

القاضي : لقد نسيت أيها الرجل أنني قاض .. أن الاسرار التي تصل الى علمي لا يمكن أن أبوح بها .

الزائـر : ولكن السر الذي أريد أن تكشفه لي لا يتعلق بك كقاض . بل يتعلق بك كانسان .

القاضي : وهذا يعني أن مسألته مسألة خاصة لا صلة لها بعملي .

الزائـر : سمها ما شئت يا سيدي . ولكنها مسألة لها صلة وثيقـة بحياتي أنا .

القاضي: صلة بحياتك أنت ؟

الزائـر : أجـل .

القاضي : ولكني لا أعرفك .

الزائـر : كلا . أنت لا تعرفني .

القاضي : ولا أذكر أن قضية لك قد جرى بحثها في المحكمة التي أرأسها

الزائـر : ولكن هناك قضية لا صلة لها بي ، بل بانسان آخر أعز عليّ من حياتي ، قد جرى بحثها في المحكمة التي ترأسها .

القاضي : وماذا تم في شأنها ...

الزائـر : لقد انتهت . انتهت كما تريدها لها أنت .

القاضي : وهل حكمت ببراءة ذلك الانسان ؟

الزائـر : كـلا .

القاضي : هل حكمت اذن بسجن ذلك الانسان ؟

الزائـر : كـلا .

القاضي : ماذا اذن ؟

الزائـر : لقد حكمت عليه بالموت .

القاضي : ماذا قلت .

الزائـر : أجل يا سيدي . لقد كانت امراتي . لقد حكمت عليها بالموت

القاضي : (وقد أدرك الى ماذا يقصد الزائر) : هل تعني تلك المراة.. (يقف مترددا .)

الزائـر : أجل . أعني تلك المراة . المراة التي زعمت أنها قتلت الطفلة.

القاضي : أأنت زوجها .؟

الزائـر : أجـل .

القاضي : وماذا تريد مني ؟ أنت تعلم أن الامر قد خرج من يدي .

الزائـر : ماذا أريد منك ؟ لا أريد شيئا .

القاضي : فلماذا جئت الى بيتي ؟ لماذا اقتحمت علي عزلتي ؟

الزائـر : ألم اقل لك ان هناك سرا أريد أن تكشفه لي ؟

القاضي : لعلك لا تعلم أنني لا أحب أن أناقش في الاحكام التي أصدرها.

الزائـر : ألانك تخاف أن يتضح لك زيفها ؟

القاضي : بل لانني لا اريد لها ان تفسد عليّ حياتي . ان تدخل ما بيني وبين القيم التي أؤمن بها .

الزائـر : لم أكن أدري أن بغضك للحياة قد بلغ بك هذا المبلغ .

القاضي : هل تعتقد أنني أبغض الحياة ؟

الزائـر : لو لم تكن تبغضها لما سهل عليك أن تحكم بسلبها من الاخرين.

القاضي : ولكن القوانين هي التي تفرض علي طريقي . هي التي تحكم على الاخرين لا أنا .

الزائـر : ذريعة لا أقبلها من انسان ذكي مثلك ؟ ترى ألم تكن تستطيع أن يكون لك قلب يحكم بالعدل قبل أن يحكم بالقانون ؟

القاضي : كأنك تنكر عليّ أن أعاقب الناس على ما اقترفت أيديهم .

الزائـر : (محتدا) أن تعاقب الناس ؟ أن تعاقب الناس ؟ ولكن قل لي من تكون أنت حتى تعاقب الناس ؟

القاضي : لاكن من أكون ، فهذا أمر لا يعني أحدا غيري .

الزائـر : ولكن قل لي : هل عرفت الناس ؟ هل أحببت الناس ؟ هل اتصلت بينك وبينهم رابطة من ثقة .. من وفاء ؟ هل اطلعت على أحزانهم ، على مآسيهم ، هل اصطدمت عيناك بؤسهم، بنقائصهم ؟ لا تقل لي أنك تعرف تلك الاقنعة التي تجوس في الشوارع ، التي تتراكض في الطرقات . اني أهزأ بهذه المعرفة . أرفضها . خذ مثلا : ماذا تعرف عن امراتي ؟

القاضي : امرأتك ؟ لقد قرأت قضيتها حرفا حرفا . لقد حاولت أن أفهمها . أن أدرك الغاية التي قتلت الطفلة من أجلها .

الزائـر : ولكنك وجدت أمامك بابا مقفلا .

القاضي : أجل . وجدت بابا مقفلا . وأنت ، هل كنت تجد أحـدى امرأتك ذلك الباب المفتوح الذي يقودك الى دخيلتها ؟

الزائـر : أنا ؟ لقد كنت أحبها .

القاضي : ولكنك لم تكن تفهمها .

الزائـر : كنت ارى بعينيها فردوسا لا سبيل الى الولوج اليه الا من خلالهمـا .

القاضي : ولكنك لم تكن تفهمها .

الزائـر : بلى . بلى .. كنت أفهمها . كنت أدرك أي مأساة سوداء كانت تكمن وراء عينيها الضائعتين . أي جوع قاتل كـان يختفي وراء لحمها الفاحل .

القاضي : ولكنك لم تحاول أن تنقذها . أن تعينها على مأساتها .

الزائـر : بلى . حاولت . لقد فعلت كل ما كان في مستطاعي . ولكنني لم أنجح .

القاضي : هل كنت تعلم عندما تزوجتها بتلك المأساة التي كانت ترهقها؟

الزائـر : كلا . لقد بدأت المأساة بعد أمد طويل من زواجي بها .

القاضي : بل تعني أنها كانت امرأة كالاخريات ؟ لا هم لها الا بيتها . لا شغل لها الا زوجها وأولادها .؟

الزائـر : أجل . أجل . كانت فتاة في العشرين من عمرها . نقيـة كقطرة ندى ، جميلة كصباح مشرق ، راضية عن الحيـاة تنتظر منها هبات لا حصر لها .

القاضي : ماذا حدث اذن ؟

الزائـر : حدث ما لم يكن في حسبان احد . لقد كانت تنتظـر أن ترزق ولدا . ولكن الشهور أخذت تتابع دون أن تحس في جسدها الجائع بتلك الخفقة الحية التي تحيله الى شجرة مورقة خصبة . ولكنها لم تيأس . ظلت تحلم بالولد . ظلت تحلم باليوم الذي تستيقظ فيه فتحس انها بسبيل ان تصبح أما . ولكن الجسد الجائع ظل حقلا مجدبا لا أثر فيه للحياة.

ولكن الشجرة التي كانت تريد ان تراها مورقة خصبة ظلت عارية لا أغصان لها . ترى هل تستطيع أن تدرك ما معنى أن تكون المرأة عاقرا ؟ لقد كنت أراها تضع يديها المرتعشتين على بطنها ، تتحسس جوانبه ، تتلمس ثنياته كأنها كانت تريد أن تتأكد أنه لم يكن أداة لا نفع فيها . لقد كنت أراها تنصرف ساعات الى آلة خياطتها تخيط أثوابا للطفل الذي لم يولد بعد ثم تصفها في خزانة أعدتها لهذه الغاية . كلا يا سيدي . أنت لا تستطيع أن تدرك ما معنى ان تكون المرأة عاقرا . ان الرجال يستطيعون أن يعبروا هذه الطريق الوعرة التي ندعوها الحياة دون أن يكون لهم غصن منهم يزرعونه فيها .. أما النساء فانهن لا يستطعن ، لا يستطعن..

القاضي : ولكنها لم تذكر شيئا عن هذا في المحكمة ، لقد سألتها ان كان لها أطفال فلم تنبس بكلمة .

الزائر : كانت مأساتها اكبر من أي كلمة يمكن أن تقولها . كانت تحس في أعماقها بأن الحياة قد خانتها . كانت تحس بأن لها حقا في هذه الحياة ولكن الحياة قد أبت أن تعطيها حقها ..

القاضي : ولكنها لم تتردد لحظة واحدة أمام قتل طفلة صغيرة بريئة لا ذنب لها .

الزائر : كلا يا سيدي . انها لم تقتلها .

القاضي : لقد حاولت جرها الى الحديث عن جريمتها ولكنها ظلت مستمسكة بصمتها . بعنادها . لقد بدا لي أن الجريمة قد ارتكبت دون أن يكون هنالك سبب يخفف من بشاعتها ..

الزائر : لقد كانت تحب تلك الطفلة . تعشقها . تعشقها حتى العبادة.

القاضي : ولكنها مع ذلك قتلتها .

الزائر : كلا . لم تقتلها . لم تقتلها .

القاضي : تستطيع أن ترجع الى اضبارتها فستجد أنها قتلتها .

الزائر : كلا يا سيدي . أنا لا أريد ان ارجع الى اضبارتها بل أريد ان ارجع الى ذلك اليوم الذي ولدت فيه تلك الطفلة . كانت أسرتها تعيش في بيت يجاور بيتنا . كان الاب انسانا فظا غليظ القلب . أما الام فكانت رقيقة القلب . طيبة النفس هادئة . وقد اتصلت بين الام وبين زوجتي صداقة حلوة فرحت بها عندما رأيت أثرها الطيب على امرأتي . وقد علمت منها أن جارتنا حامل . ثم جاء يوم كانت فيه امرأتي عند تلك الجارة عندما جاءها المخاض . فوضعت طفلة جميلة . ولكن الام أصيبت بحمى النفاس فنقلت الى المستشفى حيث ماتت . ولكن الطفلة التي فقدت الام التي ولدتها لم تفقد حنان الام ، أو رعايتها ، لقد وجدت في امرأتي أما أخرى ، تتعهدها بعنايتها ، وتحوطها بمحبتها حتى نشأت الطفلة وهي لا تعرف لها أما غير امرأتي . ولا تسل أي فرحة استولت عليها . لقد بدأت حياتها تتفير . أخذت ملامحها تنبسط مستبشرة كلما أهلت عليها الطفلة وهي تناديها : ماما . ماما . ولعلني لا أسرف أن أنا زعمت أن تلك الطفلة كانت تجد في بيتنا ما لم تكن تجد في بيت والدها . ألم أقل لك انه كان انسانا فظا ، غليظ القلب ؟ لقد جعل يهمل أمر طفلته ، واستسلم لحياة طائشة رعناء جعلته لا يعني بطفلته أو يقوم بواجباته تجاهها . ولكن الطفلة لم تهتم لهذا . لقد كانت تجد عند امرأتي كل ما كان يلزمها . كانت تعتبرها أمها وأباها ، والشجرة المورقة التي تستطيع ان تأوي اليها . ومرت على ذلك سنوات أربع ، كبرت خلالها الطفلة وكبرت معها تلك المحبة العميقة التي كانت تحملها امرأتي لها . وذات يوم بدأت المأساة .

دخل علينا والد الطفلة ليخبرنا بانه سينقل الى مدينة أخرى. بانه وجد عملا خيرا من عمله في مدينة أخرى .. (يتوقف)

القاضي : وعندها ثارت امرأتك فقتلت الطفلة ؟

الزائر : كلا . كلا . ألم أقل لك انها لم تقتلها ؟

القاضي : ولكن اضبارتها ...

الزائر : دعني من اضبارتها . دعني من هذه الاوراق الكئيبة التي تلفقونها . من هذه الاكاذيب التي تصوغونها وأنتم تظنون انكم قد وضعتم أيديكم على الحقيقة كاملة . هل تظنون أن الانسان رقم جامد تستطيعون أن تقرأوه بنظرة واحدة ثم تعيدوه متى شئتم وكيف شئتم ؟ كلا يا سيدي . ان أوراقكم لا تعني شيئا . ان قضاتكم لا يفهمون شيئا . انكم لا ترون من الانسان الا هذا القناع الكاذب الذي يقف أمامكم مرتبكا، مترددا ، مذعورا . أما جزع الانسان ، أما ظمأ الانسان ، أما ألم الانسان ، فهذه أشياء لا تستطيع أعينكم العاجزة الوصول اليها . هل تتوهم أن في امكان تلك المرأة المعذبة أن تمد يدها تنتزع الحياة من تلك الطفلة التي كانت كل حياتها .. كل وجودها ؟

القاضي : لعلها قد آذتها من غير قصد . لعلها لم ترد قتلها ولكن خطأ ما قد حدث عندما مدت اليها يدها .

الزائر : كلا . لقد حاولت امرأتي أن تصرف أب الطفلة عن عزمه على أخذ طفلته معه . قالت له انه يستطيع أن يذهب وحده الى تلك المدينة التي أختار أن يذهب اليها . أقسمت له على أن طفلته ستكون آمنة سعيدة عندها .

القاضي : ولكن الرجل رفض هذا .

الزائر : أجل لقد رفض ما عرضته عليه امرأتي . وعندها انكبت على قدميه تقبلهما ، تضرع اليه أن يترك لها الطفلة ، تذكره بانه ما يزال في شرخ الشباب وان في ميسوره أن يتزوج مرة أخرى ، وان ينجب طفلة أخرى ، لو رأيتها يا سيدي وهي راكعة تقبل قدميه ... خيل اليّ أنها كانت مستعدة لان تصنع اي شيء يريده ذلك الرجل كي يترك لها الطفلة . ولكن الرجل ظل عنيدا .. فظا لا يجد لضراعة امرأتي أي صدى في نفسه .

القاضي : والطفلة ؟ ألم تكن تريد الذهاب مع أبيها ؟

الزائر : كلا . لقد كانت الطفلة تتمسك بثوب امرأتي لا تريد أن تتركها . كانت تريد أن تبقى معها ، أن تشاركها حياتها ، أن تظل في ذلك الظل الوريف الذي كانت تلقيه عليها امرأتي .

القاضي : وهكذا حاولت ابعاد الطفلة عن أبيها ؟

الزائر : أجل . أنا لا أنكر شيئا من هذا ! لقد حاولت ابعاد الطفلة. أرادت أن تستبقيها لها . أن تظل في فيئها الوريف . ولكن أبا الطفلة كان لها بالمرصاد . (يتوقف)

القاضي : ثم ماذا حدث ؟

الزائر : كان ذلك ذات مساء . كنا في المنزل صامتين محزونين . حاولت أن أحدث امرأتي عما فعلته خلال اليوم ولكنها لم تشأ ان تنصت اليّ . كانت عيناها ضائعتين .. مغرورقتين بدمع أسود لا يريد ان يتساقط . وبغتة دق الباب . فذهبت افتحه فاذا بالطفلة تدخل مروعة مجهشة ثم تندفع الى امرأتي وتحتضنها وتصرخ : ماما . ماما . لا أريد أن أذهب . لا أريد أن أذهب . ولم يلبث والد الطفلة أن جاء غاضبا صائحا . وأخذ يتهدد الطفلة . ثم أخذ يتهدد امرأتي نفسها . خيل اليّ لحظة أنني سأهب لقتله اذا لم يغلق فمه الكبير الغليظ . ولكن زوجتي لم تعبأ بالصياح الذي كان

يطلقه ككلب مسعور . لم تعبأ بتلك النقمة التي كان يصبها عليها صبا . بل جعلت تحاول اقناعه بالعدول عن فكرته . تحاول أن تريه أي اثم يرتكبه آذا هو ذهب بالطفلة الى مدينة آخرى لا تجد فيها من يعنى بها أو يهتم بأمورها . ولكن هدوء امرأتي زاد الرجل فظاظة . فأخذ يكيل لها السباب . يشتمها . يتهمها بأنها تريد سرقة الطفلة منه . وكان ثورة الرجل قد أصابتنا بذهول لا حد له .. فلم نحس بالطفلة التي انسلت خارجة دون آن يشعر بها أحد . وعندما أدركت امرأتي أن محاولتها اقناع الرجل آن تجدي تلفتت لتودع الطفلة . ولكن الطفلة كانت قد أختفت .

القاضي : لعل أصوات أبيها قد أخافتها فلجأت الى احدى الغرف .

الزائر : هذا ما ظنناه في بداية الامر . فطفنا البيت غرفة غرفة نفتش فيها عن الطفلة ولكننا لم نعثر عليها ...

القاضي : وعندها أدركتم ان الطفلة لا بد ان تكون قد هربت من البيت ..

الزائر : أجل . أجل . وهكذا اندفعنا نحن الثلاثة وراءها . كان الليل كثيفا وكانت النجوم مخبوءة وراء ستار من الغمام الداكن . وبغتة خلنا أن احداقنا قد خرجت من مكانها . رباه . رباه (يضع الزائر رأسه بين راحتيه ويأخذ في البكاء .) ...

القاضي : (مترددا) . لقد أبصرتم البركة ..

الزائر : أجل . البركة . كان في الحديقة المتصلة ببيتنا بركة ...

القاضي : بركة مملوءة بالماء ..

الزائر : بركة ملموءة بالماء .. وكانت الطفلة هناك .. هناك غارقة ..

القاضي : (وهو يسكب قدحا من الماء ويناوله الى الزائر) : خذ . اشرب .

الزائر : (يتناول القدح ويريقه في فمه دفعة واحدة) : اجل . كانت هناك غارقة . الصغيرتان الشقراوان وحدهما كانتا طافيتين على سطح الماء ...

القاضي : ولكن احدى جاراتكم زعمت أنها سمعت امرأتك تصرخ : أنا التي قتلتها . أنا ، أنا التي قتلتها .

الزائر : أجل . لقد صرخت : أنا التي قتلتها . لقد أحست عندها أن كل صلة لها بهذا الوجود قد انقطعت ..

القاضي : ولكنها لم تحاول آن تدفع عنها هذه التهمة ، أن تنفيها .

الزائر : كلا . بل أقسمت على ألا أحاول نفيها أنا ايضا .

القاضي : وهكذا ظلت في المحكمة عنيدة الى آخر لحظة . حزينة الى آخر لحظة .

الزائر : لعلها كانت تعلم في اعماقها انك لن تفهمها .

القاضي : هذا صحيح . لعلني لم أفهمها . ولكن قل لي : من الذي فهمها ؟ من الذي حاول ان ينقذها ؟

الزائر : هل تقصدني أنا بكلامك هذا ؟

القاضي : أجل . ترى هل وجدت لديك ملجأ من مأساتها ؟

الزائر : أنا .. أنا .. لقد كنت لها اكثر من زوج . أكثر من صديق .

القاضي : ولكنك لم تكن تفهمها . آكاد اكون على يقين من هذا .

الزائر : هل تتهمني اذن ؟

القاضي : كلا . ولكنني اريد منك شيئا واحدا . ان تقبل اخطاء الاخرين كما تقبل اخطاءك التي ترتكبها .

الزائر : لا أدري . يخيل اليّ انك على صواب . ترى هل استطيع الان أن افعل ما كنت انتوي ان افعل ؟

القاضي : وماذا كنت تنتوي ان تفعل ؟

الزائر : (وهو يخرج من جيبه مسدسا) . أن أقتلك .

القاضي : ان تقتلني ؟ ولكن ... (يتوقف)

الزائر : ولكن ماذا ؟

القاضي : لا أدري . هي فكرة عابرة فرحت بها .

الزائر : اي فكرة تعني ؟

القاضي : أن تقتلني . أليس في هذا خلاص لي من أزمة انا اعلم انها ستمسك بي حتى النهاية ؟

الزائر : لم أكن اظن ان مثل هذه الفكرة يمكن ان تخطر لك على بال .

القاضي : لماذا ؟ هل تظنني صخرة جامدة لا حس فيها ؟ انني ادرك الان انني لا أصلح أن أكون قاضيا .

الزائر : ولكن قتلي اياك لا يعيد اليها حريتها ؟ لا يجعل منها أما . لا يزرع في رحمها ولدا .

القاضي : كلا . ولكنه يستطيع ان يعيد اليّ حريتي . لقد سئمت هذه الاغلال التي تكبلني . سئمت هذه القوانين التي تقف بيني وبين الناس . سئمت هذه الاحكام التي اصدرها والتي تجعلني أتاجر بالارواح كما يتاجر غيري بقطيع من السائمة .

الزائر : هل أصبحت تكره عملك الى هذا الحد ؟

القاضي : لا . أنا لا أكره عملي . بل أكره ان تكون فيه تلك الاحكام التي تسلب انسانا ما الحياة التي يعشقها ، او الحرية التي لا يستطيع ان يعيش بدونها .

الزائر : وماذا تريد أن تفرض على الجانين الذين يقفون أمامك ؟

القاضي : لا أدري . سأحدثك بهذه الخاطرة الغريبة التي مرت بي ذات يوم . كنت في المحكمة انظر في قضية سارق دخل أحد البيوت وخرج منه بزاد ضخم من اللآلىء . ثم قبض عليه وسيق الى محكمتي . وبينما كنت أنصت الى محاميه يحاول ان يدفع عنه التهمة كانت عيناي تحدقان الى السارق بفضول لا حد له . ثم خيل اليّ ان صدر السارق اخذ ينفرج قليلا قليلا حتى رأيت وراءه حديقة جميلة غصت بأغصان من اللؤلؤ المتدلي منها . وعندها التمعت في ذهني خاطرة غريبة . خاطرة لا أظنها قد مرت في بال انسان . هل تدري آي حكم أردت ان أصدره عليه ؟ (مترددا) : لا . لا . سوف تضحك مني .

الزائر : لا . لن أضحك . قل ما تشاء .

القاضي : أردت ان احكم على السارق بأن يقضي عمره كله ينحت حجارة على شكل لآلىء ثم يعلقها على اغصان الحديقة في هذه المدينة .

الزائر : ولكنك لم تفعل ؟

القاضي : كلا . لقد كان هذا صوتي الآخر الذي يهمس في أذني . لعلك تدري ان لكل انسان منا صوتين : صوتا عاديا يشبه الاصوات جميعها . صوتا مكرورا .. يعيد تلك الكلمات المبتذلة التي يقولها الناس دون ان يبحثوا عن معناها . وصوتا آخر لا يشبه الاصوات التي نعرفها .. صوتا أصيلا .. عميقا .. فريدا .. يتحدث عنا .. يهمس في آذاننا . يردد ما في أعماقنا من آلم .. من ايمان .. من صدق ..

الزائر : ولكنك لم تستمع لصوتك الآخر عندما حكمت على امرأتي بالموت .

القاضي : وهل تظن آن في مقدورنا دائما ان نستمع لذلك الصوت الآخر ؟ ان جدرانا صفيقة عالية قد رفعت بينه وبيننا .. جدرانا أقامتها أعوام طويلة من الحضارة الكاذبة ، من الغرور الاحمق .. من الملق الذي يحيل كل شيء الى كلمات فارغة لا معنى لها ...

الزائر : ألهذا كله تريد مني أن أقتلك ؟

القاضي : ومن قال لك انني اريد ان تقتلني ؟

الزائر : عيناك القلقتان . وهذا الصوت الآخر الذي يطن في أذني

ظنينا موجعا .

القاضي : كلا . يا صديقي . بل أريد أن أحيا . أريد أن أحيا .

الزائـر : ولماذا ؟ هل تظن ان في استطاعتك ان تهرب من ذلك الصوت الآخر الذي يذكرك بالانفاس البريئة التي قتلتها ؟

القاضي : ومن قال لك انني أريد أن أهرب منه ؟

الزائـر : ماذا تريد اذن ؟

القاضي : لا أدري . أعلني أريد أن أحيا . أن أتابع عملي كان شيئا لم يكـن ...

الزائـر : لعلك تريد اذن أن تكون حياتك موتا لا تنتهي منه مرة واحدة بل يعاودك مرة اثر مرة .. ولكنني لن أدعك تفعل ذلك .

القاضي : لماذا ؟ ألا يسرك ان تراني أموت اكثر من مرة واحدة ؟

الزائر : (وهـو يصوب المسدس الى صدر القاضي) كلا : بل اريـد لـك ان تموت بيـدي ..

القاضي : اضغط على الزناد اذن . لننته من هذا الامر قبل ان يأتي احد فينقذنـي .

الزائر : لن ينقذك أحد منـي .

القاضي : بلى .ينقذنيمنك انسان لا أظنك تستطيع ان تنساه .

الزائر : ومن يكون هذا الانسان ؟

القاضي : امرأتـك !

القاضي : أجل امرأتك. هل يدهشك قولي ؟

الزائر : (وهو يضحك ضحكة صفراء) امرأتي ؟

القاضي : أجل . أجل .

الزائر : الآنك حكمت بموتها ..

القاضي : بل لانهـا بحاجة اليك . ألست تسمع هذه الاصوات التي تأتي الينا مـن بعيـد ؟

الزائر : (وهو ينصت بجوارحه كلها) اي أصوات تعني ؟

القاضي : أصواتها . الاصوات التي تنطلق من حنجرتها كمـا ينطلـق النغم من نـاي مسحور . انصت ! انهـا تقف في حجرتهـا تتطلع بعينيها الى السقف كانهـا تريد ان تخترقه بعينيها . وبغتة تنفرج شفتاها عن ابتسامة حلوة .. مشفقة : انها تراك. ترى وجهك المعذب .. المتجهم . ترى عينيك الضائعتيـن المحزونتين . ولكنك تشيح وجهك عنها . تطرق برأسك كأنـك تخشى ان تلتقي عيناك بعينيها . اما هي فانها لا تيأس ممـا صنعت . ان قلبها يعلم ان حياتـك لا يمكـن ان تكمل الا بحياتها . ان طريقك لا يمكن ان ينحرف عن طريقها . ان سماءك لا يمكـن ان تكون زرقاء الا اذا اصطبغت بزرقـة احداقها ، وعندها تنطلق من حنجرتها صيحة قوية ...أصوات لا يستطيع اي جدار ان يقفها . لا يستطيـع اي زمـان ان يحجزها . لا يستطيع اي مدى ان يصدها ..

الزائر : (في ذهول) : أصوات تنطلق من حنجرتها كمـا ينطلق النغم من ناي مسحور .

القاضي : أجل .. أجل .. ألست تسمع تلك الاصوات ؟

الزائر : كلا . لا اسمع شيئا .

القاضي : بل تسمعها ولكنك لا تريد ان تعترف .

الزائر : امر غريب حقا . لماذا تريدني ان أعترف بما لا اسمع ؟

القاضي : ولكنك تسمعها . اقرأهذا في عينيك الضائعتين .

الزائر : لو قرأت في عينيها كما تقرأ في عيني لما حكمت عليها .

القاضي : ولكن عينيها كانتا سدين عاليين لا يستطيع أحـد ان ينفذمنهما.

الزائر : اسمع لي لعلك ظننتني أهزل عندما رأيت المسدس في يدي.

القاضي : كلا . بل ادركت أنك كنت جادا .

الزائر : الهذا حاولتالتغرير بـي ؟

القاضي : صدقني . لم أكن أقول لك الا الحق .

الزائر : بـل كنت تكذبنـي.

القاضي : أكذبك ؟ ولكن لماذا ؟

الزائر : لانك خشيت ان تموت .

القاضي : ولكن من قال لك ان حياتي تستحق مني هذا الحرص كله؟

الزائر : لماذا قلت لي اذن انك كنت تسمع أصواتها ؟

القاضي : لانـني كنت اسمعها حقا .

الزائر : تسمعها كما تسمع صوتي ؟

القاضي : لماذا تسأل ؟

الزائر : لانـني اسمعها أنا أيضا .

القاضي : أرأيت ؟ انك تعلم الان انني كنت صادقا .

الزائـر : ولكن أنت ...

القاضي : ما الذي تريد مني ؟

الزائر : لماذا .. لماذا تسمعها ؟

القاضي : لانني فهمت انني احتاج اليها .

الزائـر : فهمت ماذا ؟

القاضي : فهمت انني احتاج اليها . أيدهشك هذا ؟

الزائـر : لا ادري : ولكن لماذا تحتاج اليها . لتخنقها مرة أخرى؟

القاضي : بل لأنطقها بالحقيقة التي شاءت أن تخفيها .

الزائـر : حقيقتك أم حقيقتها ؟

القاضي : كلاهمـا .

الزائـر : يا للحماقة !!

القاضي : لا بد أنك ما تزال تظنني أكذب !

الزائـر : كلا . ولكن حديثك هذا يؤلمني .

القاضي : هذا ما خفت أن يحدث ..

الزائـر : يخيل الى أنه يشغلني عن تلك الاصوات التي أحبها .

القاضي : فلاسكت اذن !

الزائـر : أجل . اسكت .

القاضي : هانذا قد سكتت .

الزائـر : أجل . أجل . انني اسمع تلك الاصوات . أسمعها . أسمعها تخترق الجدران كلها . تقتحم الاكوان كلها . أسمعها تناديني .. تدعوني ... تريد مني أن اكمل حياتي بحياتها .. أن أصل طريقي بطريقها . أن أصبغ سمائـي بزرقة احداقها .. (يقف محدقا الى الفراغ بعد ان وضع المسدس على المنضدة .) أيتها العزيزة . أيتها الاصوات التي تنطلق من حنجرتها .. انني آت .. آت .. ات .. (يندفع الى باب الغرفة فيفتحه بعنف ثم ينطلق خارجا)

القاضي : (وهو يحاول اللحاق به) : لا . لا تذهب . لا تذهب . هناك اصوات اخرى اريدك ان تسمعها . ايها الرجل ! ايها الرجل !

الزوجة : (وهي تدخل من الباب بعد سماع صوت زوجها) : ما بك يا عزيزي ؟ أانت الذي يصرخ هذا الصراخ الطويل ؟

القاضي : لندرك الرجل قبل ان يغادر البيت . أسرعي ! اسرعي !

الزوجة : اي رجل تعني ؟

القاضي : الرجل . الرجل الذي كان هنا .

الزوجة : الرجل الذي كان هنا ؟ ولكنني لم أر اي رجل يدخل هذه الغرفـة .

القاضي : ولكنه كان هنا . تستطيعين ان تكوني على ثقة من هذا .

الزوجة : لقد كنت مستلقية في الغرفة المجاورة طوال هذه المدة ، فلم ار أحدا يدخل غرفتك البتة .

القاضي : ماذا تعنين بهذا ؟

الزوجة : اعني انني لم ار احدا يفسد عليك عزلتك التي كنت تنعم بها.

القاضي : ولكن .. ولكن ...

الزوجة : لعلك كنت مضطرب الاعصاب يا عزيزي فخيل اليك انـك رأيت رجلا يدخل عليك الغرفة .

القاضي : ولكنها لم تكن رؤية عابرة . لقد جلس اليّ وحدثني حديثا طويلا مثيرا ..

الزوجة : لعله كان حلما اذن . لا شك في انك غفوت قليلا وانـت تعمـل ...

القاضي : ولكنني لم اكن اعمل . كنت احدث ذلك الرجل وأحاول ان استخلص منه الحقيقة التي كنت أجهلها .

الزوجة : استطيع ان أؤكد لك ان احدا ما لم يكن في الغرفه معك . لقد كنت تحلم يا عزيزي .

القاضي : كنت أحلم . ولكن ما الفرق بين الحلم والحقيقة اذا كنا لا نستطيع ان نكتشف اخطاءنا الا من خلال حلم ؟

الزوجة : سآتي لك بقدح من الشاي : اني أرى في عينيك تعبا لا نهاية لـــه .

القاضي : لا أدري يا عزيزي . خيل اليّ وانا جالس في مقعدي انني أرى رجلا يتقدم مني ثم يخاطبني كما لم يخاطبني انسان من قبل . لقد عرفت منه أشياء كنت أجهلها . أشياء لا استطيع بعد اليوم ان أتناساها . اشياء لا يمكن أن تسير حياتي بعدها كما كانت تسير قبلها . لقد حدثني عن تلك المرأة التي اصدرت اليوم عليها حكمي . لقد كانت امرأته .

الزوجة : لا شك في ان حديث صديقنا الدكتور قد اثارك .

القاضي : الان أحس بأن أشياء كثيرة مما قالها كانت صوابا .

الزوجة : أهذا ما وصلت اليه قناعتك وانت غاف في ذلك المقعـــد المريـح ؟

القاضي : انت على حق يا عزيزتي . لا شك في أن كل ذلك لم يكـن الا حلما .. حلما لا استطيع ان ارتاب في دلالته اطلاقا .

الزوجـة : فلآت لك بقدح من الشاي اذن .

القاضي : لا . اريد شيئا . تعالي نجلس . اني أحس بتعب قاتل .

(يقترب القاضي من المقعد الذي كان يجلس عليه ثم يتهالك عليه ، بينمـا تظل زوجته واقفة)

الزوجة : ألا تفضل ان تأوي الى الفراش ؟

القاضي : كلا . لنجلس قليلا .

(تجلس الزوجة على المقعد الذي كان يجلس عليه الزائر)

الزوجة : أتعلم يا عزيزي ؟

القاضي : مـاذا ؟

الزوجة : اعتقد انك تحتاج الى عطلة طويلة تذهب فيها الى الجبل .. او الى آي مكان تريده .

القاضي : نعم . عطلة طويلة استطيع فيها ان اريح اعصابي . ولكن متى ؟ متى ؟

الزوجة : الا تستطيع ترك المحكمة لمدة اسبوعين او ثلاثة ؟

القاضي : بلى . ولكنني لا اريد ..

الزوجة : لا تريد ؟ ولكن لماذا ؟

القاضي : ألم أقل لك انني قد عرفت اشياء لا يمكن ان تسير حياتي بعدها كما كانت تسير قبلها ؟

(صمـــت)

الزوجة : (وهي تلمح مسدسا على المنضدة) . لم اكن اعلم انك تمتلك مسدســا .

القاضي : (وهو يفتح عينيه) أنا أمتلك مسدسا ؟

الزوجة : (وهي تشير الى المسدس) ، اجل . انظر . أليس هـذا المسدس مسدسك ؟

القاضي : (وهو ينظر الى المسدس بعينين زائغتين) : كلا . انه ليس مسدسي .

الزوجة : مسدس من اذن ؟

القاضي : انه مسدس الرجل . مسدس الرجل الذي زعمت لي أنه لم يكن موجودا الا في خيالي .

الزوجة : ولكن . ولكن ...

القاضي : ماذا يا عزيزتي ؟ تستطيعين ان تؤكدي لي الف مرة ان الرجل لم يدخل غرفتي . انني كنت أحلم . أن أعصابي المتعبة قد صورته لي انسانا حيا . ولكن هذا لا يغير من الامر شيئا . لقد رأيت ذلك الوجه . لقد رأيت تلك العينين اليائستين الحزينتين . لقد سمعت ذلك الصوت . قد يكون هذا كله حلما . وقد يكون حقيقة . ولكن ما الفرق بين الحلـــم والحقيقة ؟ اننا نعيش في بروج لا نوافذ لها . بروج من الصخر الصلد لا نسمع فيها غير اصواتنا . لا نبصر فيها غير وجوهنا . ثم يتاح لنا ان ننزل منها مرة فيصدمنا أن نرى في الطريق وجوها اخرى تشبه وجوهنا . ولكنها وجوه تختفي وراءها احاسيس لا نستطيع ادراكها . تختفي وراءها مآس لا نصل الى فهمها . لقد رفعت الاسوار بيننا وبين الاخرين . لقد هدمت الجسور بيننا وبين الاخرين . ثم يراد منا ان ندين الاخرين . ان نحكم على الاخرين . ولكن من يستطيع أن يحكم على انسان آخر ؟ من يستطيع ان يصـل الى فهم انسان آخر ؟ يا للغباوة ! الا ترين يا عزيزتي ان كل زهرة تموت في حديقة من حدائق هذه المدينة تفتح في حديقتنا .. في صدرنا .. في احاسيسنا قبرا لا سبيـل الى الفرار منه ؟

(يقف القاضي ويأخذ المسدس بين يديه)

الزوجة : (مذعورة) : ولكن ماذا تنوي ان تصنع ؟

القاضي : (يبتسم ابتسامة ساخرة) : كلا يا عزيزتي . لا تخافي . لن اطلق الرصاص على رأسي .

الزوجة : ولكن ؟ ماذا تصنع بهذا المسدس ؟ ضعه جانبا ؟

القاضي : كما تشائين يا عزيزتي (يعيد المسدس الى المنضدة) . ألم أقل لك انني لن اطلق الرصاص على رأسي ؟

الزوجة : خفت أن يزل اصبعك عن الزناد فتنطلق منه رصاصـــة طائشـة .

القاضي : وهل تظنينني قادرا على قتل نفسي ؟ ان الحياة التي اريد ان احياها بعد اليوم لا يمكن ان تبدأ بهذا الموت التافـه الطائش !

الزوجة : لنبدأها اذن بتلك العطلة التي حدثتك عنها .

القاضي : بل لا بد من اعادة محاكمة تلك المرأة . وبعد ذلك استطيع ان افكر في امر عطلتي ولعلني استطيع التفكير في استقالتي من عملي ايضا . أما الان فيجب ان أذهب الى السجن . يجب ان افعل شيئا من اجلها .

(ينهض من مقعده ويهم بالخروج)

الزوجة : (مترددة مرتبكة ، ولكن .. ولكن تلك المرأة .

القاضي : لا . لا . تقولي شيئا . اتركيني احاول ان انقذها ، فقد تكون ثمة فرصة لنجاتها لا اريد ان تفوتها .

(يخرج مسرعا)

الزوجة : ان تنقذها ؟ لا يا زوجي العزيز . لن تستطيع ان تنقذها بعد الان . لقد اردت ان اخبرك انها ماتت . انها غافلت حارستها وهما تصعدان احد سلالم سجنها فالقت بنفسها من أعلى السلم . نعم . لقد نقل اليّ هذا النبأ منذ قليل . لقد اردت ان اخبرك ولكنني لم استطع . لقد خفت ان تكون المفاجأة اكبر من ان تستطيع احتمالها . اما الان فقد خرج الامر من يدي . انت الان وجها لوجه امام تلك المفاجـــأة المرعبة ، فهل تستطيع ان تخرج سالما ؟ هل تستطيع ان تحدق اليها بعينين مفتوحتين لا تطرفان ؟ ان قلبي ليضطرب في اضلاعي مخافة ان تنهزم امامها . ولكن من يدري ؟ لعلك تخرج ظافرا ، لعل هذه المحنة التي ستمر بها ستجعل منك انسانا اخر ، انسانا يستطيع ان يرى خلال الاعين القلقة المتعبة ما لم ير خلال تلك القوانين الجامدة التي عـــاش في غبارها . ان تنقذها ؟ لا يا عزيزي . فالفرصة التي لم ترد ان تفوتها قد فاتتها . ولكـن هناك فرصة لنجاتك انت فهل تتركها تفوتك ؟ هل تتركها ؟

دمشـق

عمر النص